حياة محمد

La vie de Mohamet
par
Emiel Dermenghens

بين الشرق والغرب جدل يرجع معظمه الى ما ركب في طبائع البشر من المطامع . فاي منهما قويت شوكته ، واستد ساعده ، نازل صاحبه يعتدي عليه ، و يسلبه استقلاله ، سنة القوي في الضعيف .

وقديماً كانت هذه الخصومة ، بيد انها كانت خصومة صريحة ، ومن آيات الشرف الصراحة . يهاجم الشرقُ الغربَ ، والغربُ الشرقَ باسم الدين ، ومن اجل السلب ، ويسمي كل منهما عمله : جهاداً اوحرباً مقدسة ، وغزواً . من غير مواربة ولا مداهنة .

ودارت الايام دورتها ، فتهذبت مظاهر الناس ، وظلت نفوسهم على ما كانت عليه من الطمع والجشع ، وسلب القوي حق الضعيف ، واعتدائه عليه . ولكن باسم التمدين وهو اسم جديد أطلقته سياسة العصر الحاضر على الغزو والحروب الدينيـة . والغريب ان الامم من قبل — اي في همجيتها ... — كانت تقاتل من اجل دينها ، فاذا بعض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أم الغرب اليوم تقاتل مأجورة حتى في سبيل دين غير دينها .

وهذا الاعتداء الطريف في بردة التمدين ، يتطلب « دعاية » تتقدم الفتح تمهيداً لمقاصده ، او تتبعه تثبيتاً لقواعده ، تُظهِر الضعيف في ثوب خَلَق من الجهل والشقاء ، فيعذر القوي في التغلب عليه « لتمدينه » . وما هو الا ان تنشب فيه أظافره حتى يزق أديمه ، ويمتص دماءه .

لذلك انطلقت ألسنة رجال العلم من الأقوياء ، وممن يمت اليهم بسبب ، يؤلفون عن المستضعفين التآليف المبكية المضحكة . يلفقون لهم تاريخاً غير تاريخهم ، و يخلقون لهم قوميات غير قومياتهم ، و ينكرون عليهم حقهم في الحياة ، ويسمون عملهم بعد ذلك علماً وتاريخاً .

حال يدعو المستضعفين — ونحن منهم — ان يتدبروا ما يقال فيهم بحذر و يقظة ، ليعرفوا ما الذي يراد بهم مما يؤلف عنهم .

كانت هذه الفكرة تملأ رأسي وانا أنظر في الصفحة الاولى من كتاب (حياة محمد) ومررت بالمقدمة فاذا المؤلف يقول :

« أردت ان أرسم لمحمد صورة صحيحة على قدر ما يمكن ، وذلك كما رأيته حياً في حديث الكتب ، وفي النفوس الحية من اولئك المؤمنين به » .... « واتخذت في كلامي عنه خطةً وسطاً ، بين اولئك المستشرقين المُغرِطين فيه والمُفرِّطين . فمنهم من يجعله فوق اهل زمانه ، يختلف عنهم في كل شيء ، ومنهم من يجعله شبيهاً بهم في كل شيء . وبعضهم يزعمه مات من التهتم ، وآخر من الصوم » .

« ومما يؤسف له ، ان الاب لامنس — وهو من أحدث المؤلفين ، واكبر الادباء المتخصصين — كان من اكثرهم تغرضاً فجاءت كتبه القيمة الممتعة مشوهة بكرهه الاسلام ، ونبي المسلمين . ولقد طبق هذا العالم اليسوعي على هذا التاريخ تلك الاساليب الانتقادية القاسية التي وجهها بعضهم الى النصرانية » .

قرأت هذا كله في مقدمة الكتاب ، فلم يغير الا قليلاً مما كان علق بنفسي . اذ المقدمات شيء ، وما يكتب بعدها شيء آخر . ولشد ما يختلفان .

على اني ما اخذت في قراءة الصفحات الاولى حتى رأيتني مسوقاً الى المضي حتى آخر صفحة من هذا الكتاب . فاذا المؤلف صادق في قوله ، ماض على الخطة التي اختطها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لنفسه من الصراحة والاعتدال . نزه قلمه عن التعصب على النبي ، وتجانف عن التسليم الاعمي . فصوّب حيث رأى صواباً ، وخطأ حيث ظن خطأ .

سرد (حياة محمد) باسلوب قصصي — وكتابه هذا حلقة من سلسلة سماها (قصص العظماء) — فكان أسلوبه شائقاً ، وعبارته سهلة على مانقتضي الرواية و يلتذه القاريء . وصف نشأة محمد (ص) الاولى وصفاً دقيقاً ، وأفاض في ما لقيه من العقبات والأهوال في نشر دعوته ، وأشاد بثباته وعزمه ، وعفوه وحلمه ، وعظمته وتسامحه ، وأتى بمثال على ما كان يوصي به رجاله في الغزوات من معاملة الضعفاء والشيوخ والاولاد والنساء ، معاملة حسنة ، وان لا يعتدوا على ساكن . ولا يتلفوا زرعاً . ولا يقطعوا شجراً . و يقول المؤلف : وهذا ما يقل في التاريخ مثله .

ونوّه بترقيته لقومه ، ونظم شملهم على أساس جديد لا سابق عهد لهم به .

وقال : اذا لم يأت الرسول بالمعجزات التي اتى بها غيره من الرسل ، فحسبه معجزة انه جمع اليه اولئك العرب الجفاة الذين طبعوا على الفوضى ونشأوا على الخصام والقتال فلم يعرفوا الحياة العامة قبل مبعث الرسول .

ونوّه كذلك بما كان من عمل محمد في رفع مستوى المرأة ، وبما أوجده لها من حقوق . وانه أوجب معاملتها بالحسنى ، ومنعها العزوبة وهو اكبر خطر يهدد حياتها اليوم . واثني على خديجة وعلى جهادها الى جانب النبي وذكر مكانتها عنده .

وأعجب بما كان يضعه الرسول من شرائع يأتي بها على مهل ، مما يتفق وروح التشريع ، والغرض منه . قال وكان محمد رسولاً ومشترعاً وسياسياً وعسكرياً .

قال : و صدقُ محمد ثابت لا يمكن ان يوضع اليوم موضع الشك والريبة ، وحياته على ما فيها من هفوات — لم يكن ينكرها — تشهد له بانه كان على ثقة من رسالته . ولقد تحمّل هذه الرسالة بشجاعة ، كأنها عبءٌ كان عليه ان يكون اول من يستقل بأثقل نصيب منه .

وذكر جهود المهاجرين في مُهاجرهم . وانهم دخلوا يثرب ضعافاً فقراء ، فعملوا وجَمَدوا حتى أثرى نفر منهم . نازعوا اليهود في تجارتهم فغلبوهم على جزء منها . وأدخلوا على المدينة روحاً جديداً من الهمة والسعي . ويخيل اليك وهو يصور هؤلاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المهاجرين في كدحهم ، انه يصف فريقاً من الامة الاميركية بنشاطها وجهادها .

ويمتدح عمل الاسلام في الفن والحضارة في صفحات ربما نقلنا شيئاً منها في مقال آخر .

وهو مع هذا يأخذ على الرسول فتكه ببعض من فتك بهم ويقول : « وكنا نود ان لا نسجل مثل هذه الحوادث على الرجل الذي جمع في نفسه ماجمع من الشرف والعظمة . ولعل محمداً من حيث هو انسان ، كان مضطراً للدفاع عن نفسه ذلك الدفاع الذي تجيزه حقوق عصره وبلاده ، غير انا كنا نريد لرسول الله ، الباعث بني قومه من بعد موتهم ، ان يكون اكثر صفاءً ، واكثر ترفعاً عن التأثر بالعوامل البشرية ، حتى لا يقع شيء من الظل على هذه الصورة الوضّاءة من كل ناحية أخرى من نواحيها » .

و يقول ان المسلمين كانوا في فجر الاسلام اقرب الى النصارى منهم في القرون التي تلت . و بلتي تبعة ما وقع من خلاف على المفسرين والمحدثين من المسلمين الذين خرجوا عن الاستئلاف والقربى اللذين ارادهما الرسول . ولا يبرئ النصارى مما رمى به المسلمين ، فهم في تآليفهم قد رموا المسلمين بما هؤلاء منه براء ، واتهموا رسولهم تهماً كاذبة شنعاء .

والذي ننكره عليه انه اخذ ببعض خرافات لا يجوزها العقل ، ولا يقول بهـا من المسلمين غير العامة . وهذا قليل جداً .

وانه أراد ان يجعل الاسلام صورة كاملة عن النصرانية ، لذلك يزعم ان الاختلاف بين الدينين انما نجم عن تحريف في القرآن ... و يعلل ذلك تعليلاً غير مقبول . وهذا الزعم يحمل القارئ على اتهام المؤلف بانه استمد رأيه هذا من شعور ديني ان لم يكن فيه مختاراً فقد غلب عليه .

وعلى الجملة فهذا الكتاب من خير ما أخرجه غربي عن محمد (ص) . فنشكر للمؤلف جهوده في العمل وصدقه في الرواية .

عارف النكدي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net